بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسِّر، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي في مقدمته على كتابه:

"التسهيل لعلوم التنزيل":

وأما التصوُّف فله تعلُّق بالقرآن الكريم، لما ورد في القرآن الكريم من المعارف الإلهية، ورياضة النفوس، وتنوير القلوب وتطهيرها باكتساب الأخلاق الحميدة، واجتناب الأخلاق الذميمة، وقد تكلَّمت المتصوِّفة في تفسير القرآن، فمنهم من أحسن وأجاد، ووصل بنور بصيرته إلى دقائق المعاني ووقف على حقيقة المراد. . . . وتكلَّمنا أيضاً على اثني عشر مقاماً من مقامات التصوُّف في مواضعها من القرآن، فتكلَّمنا على:

المقام الأول: الشكر في أمِّ القرآن، لما بين الحمد والشكر من الاشتراك في المعنى.

المقام الثاني: التقوى في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

المقام الثالث: الذكر في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]

المقام الرابع: الصبر في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

المقام الخامس: التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

المقام السادس: محبَّة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

المقام السابع: التوكُّل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

المقام الثامن: المراقبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

المقام التاسع والعاشر: الخوف والرجاء في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

المقام الحادي عشر: التوبة في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١].

المقام الثاني عشر: الإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

الشكر

المقام الأول: الشكر في أمِّ القرآن، لما بين الحمد والشكر من الاشتراك في المعنى.

الحمد أعمُّ من الشكر، لأنَّ الشكر لا يكون إلا جزاءً على نعمة، والحمد يكون جزاءً كالشكر، ويكون ثناءً ابتداءً، كما أنَّ الشكر قد يكون أعمَّ من الحمد، لأنَّ الحمد باللسان؛ والشكر باللسان والقلب والجوارح.

فإذا فهمت عموم الحمد، علمت أن قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] يقتضي الثناء عليه لما هو من الجلال والعظمة والوحدانية والعزة والإفضال والعلم والمقدرة والحكمة وغير ذلك من الصفات، ويتضمَّن معاني أسمائه الحسنى التسعة والتسعين، ويقتضي شكره والثناء عليه بكلِّ نعمة أعطى، ورحمة أولى جميعَ خلقه في الآخرة والأولى.

فيا لها من كلمة جمعت ما تضيق عنه المجلدات، واتفق دون عدة عقول الخلائق، ويكفيك أن الله تعالى جعلها أوَّل كتابه، وآخر دعوى أهل الجنة.

الشكر باللسان هو الثناء على المنعم والتحدُّث بالنعم.

قال رسول الله ﷺ: (التحدُّث بالنعم شكر) [أورده العجلوني في كشف الخفا، وعزاه لأحمد والطبراني عن النعمان بن بشير رضي الله عنه].

والشكر بالجوارح هو العمل بطاعة الله تعالى وترك معاصيه، والشكر بالقلب هو معرفة مقدار النعمة، والعلم بأنَّها من الله جلَّ جلاله وحده، والعلم بأنَّها تفضُّل لا باستحقاق العبد.

واعلم أنَّ النعم التي يجب الشكر عليها لا تُحصى، ولكنها تنحصر في ثلاثة أقسام:

نعم دنيويَّة: كالعافية، والمال.

ونعم دينيَّة: كالعلم، والتقوى.

ونعم أخرويَّة: وهي جزاؤه بالثواب الكثير على العمل القليل في العمر القصير.

والناس في الشكر على مقامين: منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه خاصة.

ومنهم من يشكر اللهَ تعالى عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم.

والشكر على ثلاث درجات:

١ - درجة العوام: الشكر على النعم.

٢ - درجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كلِّ حال.

٣- درجة خواص الخواص: أن يغيب عن النعمة بمشاهدة المنعم.

قال رجل **لإبراهيم بن أدهم** رضي الله عنه: الفقراء إذا مُنعوا شكروا وإذا أُعطوا آثروا.

ومن فضيلة الشكر أنه من صفات الحق، ومن صفات الخلق، فإنَّ من أسماء الله تعالى الشاكر والشكور.

الشكور: اسم الله تعالى المجازي لعباده على أعمالهم بجزيل الثواب، **وقيل**: المثني على عباده.

التقوى

المقام الثاني: **التقوى** في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: من التقوى، وهي: الخوف والتزام طاعة الله تعالى وترك معاصيه، فهو جامع لكلِّ خير.

الكلام عن التقوى في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في فضائلها المستنبطة من القرآن:

وهي خمس عشرة:

١ -الهدى: لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

٢ -النصرة: لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل: ١٢٨].

٣- الولاية: لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

٤ - المحبة: لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

٥ - الفرقان والمغفرة: لقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٦ - ٧- المخرج من الغمِّ، والرزق من حيث لا يحتسب: لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢].

٨- تيسير الأمور: لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

٩-١٠- غفران الذنوب وإعظام الأجور: لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥].

١١- تقبُّل الأعمال: لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

١٢- الفلاح: لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

١٣-البشرى: لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

١٤- دخول الجنة: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

١٥-النجاة من النار: لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢].

الفصل الثاني: البواعث على التقوى عشرة، وهي:

١-خوف العقاب الأخروي.

٢- خوف العقاب الدنيوي.

٣- رجاء الثواب الدنيوي.

٤- رجاء الثواب الأخروي.

٥- خوف الحساب.

٦- الحياء من نظر الله سبحانه، وهو مقام المراقبة.

٧- الشكر على نعمه بطاعته.

٨- العلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

٩- تعظيم جلال الله تعالى، وهو مقام الهيبة.

١٠- صدق المحبة: لقول القائل:

تعصي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ   هذا لَعَمْري في القياسِ بديعُ

لو كانَ حُبُّكَ صادقاً لأطعتَهُ   إنَّ المحبَّ لمنْ يُحِبُّ مُطيعُ

ولله در القائل:

قالتْ وقد سألَتْ عن حالِ عاشقِها: لله صِـــفْهُ ولا تُـــنْقِص ولا تَـــزِدِ
فقلتَ: لو كانَ رهنَ الموتِ من ظَمَـأٍ وقلتِ: قفْ عن ورودِ المـاءِ، لم يَـرِدِ

الفصل الثالث: في درجات التقوى: وهي خمس:

١- أن يتقي العبدُ الكفرَ، وذلك مقام الإسلام.

٢- أن يتقي المعاصيَ والحرماتِ، وهو مقام التوبة.

٣- أن يتقي الشبهاتِ، وهو مقام الورع.

٤- أن يتقي المباحاتِ، وهو مقام الزُّهد.

٥- أن يتقي حضورَ غير الله تعالى على قلبه، وهو مقام المشاهدة.

الذكر

المقام الثالث: الذكر في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: قال **سعيد بن المسيب**: معناه اذكروني بالطاعة، أذكركم بالثواب، وقيل: اذكروني بالدعاء والتسبيح ونحو ذلك، وقد أكثر المفسرون، ولا سيما المتصوفة، في تفسير هذا الموضع بألفاظ لها معاني مخصوصة، ولا دليل على التخصيص، وبالجملة فهذه الآية بيانٌ لشرف الذكر، وبيَّنها قولُ رسول الله ﷺ كما يرويه عن ربه: (أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإنْ ذكرَني في نفسه ذكرتُهُ في نفسي، وإنْ ذكرَني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم) متفق عليه.

والذكر ثلاثة أنواع: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وبهما معاً.

اعلم أنَّ الذكر أفضلُ الأعمال على الجملة، وإن ورد في بعض الأحاديث تفضيل غيره من الأعمال: كالصلاة وغيرها؛ فإنَّ ذلك لما فيها من معنى الذكر والحضور مع الله تعالى.

والدليل على فضيلة الذكر من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: النصوص الواردة بتفضيله على سائر الأعمال، قال رسول الله ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوَّكم

فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: ذكرُ الله) رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «ذكر الله»، قيل: الذكر أفضل أم الجهاد في سبيل الله؟ فقال: «لو ضرب المجاهد بسيفه في الكفار حتى ينقطع سيفه ويختضب دماً، لكان الذاكرُ أفضلَ منه») أخرجه ابن ماجه ومالك وأحمد والترمذي بألفاظ متقاربة.

الوجه الثاني: أنَّ الله تعالى حيث ما أمر بالذكر، أو أثنى على الذكر، اشترطَ فيه الكثرةَ، فقال تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. ولم يشترط ذلك في سائر الأعمال.

الوجه الثالث: أنَّ للذكر مزيةً هي له خاصة وليست لغيره: وهي الحضور في الحضرة العليَّة، والوصول إلى القرب بالذي عبَّر عنه ما ورد في الحديث من المجالسة والمعيَّة، فإنَّ الله تعالى يقول: (أنا جليس من ذكرني) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

ويقول: (أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والبيهقي بلفظ: (وأنا معه حين يذكرني).

وللناس في المقصد بالذكر مقامان: فمقصد العامة اكتساب الأجور، ومقصد الخاصة القرب والحضور، وما بين المقامين بَوْن بعيد، فكم بين من يأخذ أجره وهو من وراء حجاب، وبين من يقرب حتى يكون من خواصِّ الأحباب.

واعلم أنَّ الذكر على أنواع كثيرة: فمنها التهليل، والتسبيح، والتكبير، والحمد، والحوقلة، والحسبلة، وذكر كلِّ اسم من أسماء الله تعالى، والصلاة على النبي ﷺ، والاستغفار، وغير ذلك.

ولكلِّ ذكر خاصيَّته وثمرته:

أما **التهليل**: فثمرته التوحيد، أعني التوحيد الخاص، فإنَّ التوحيد العامَّ حاصل لكلِّ مؤمن.

وأما **التكبير**: فثمرته التعظيم والإجلال لذي الجلال.

وأما الحمد والأسماء التي معناها الإحسان والرحمة، كالرحمن الرحيم والكريم والغفار وشبه ذلك، فثمرتها ثلاث مقامات: وهي الشكر، وقوة الرجاء، والمحبة. فإنَّ المحسنَ محبوبٌ لا محالة.

وأما **الحوقلة والحسبلة**: فثمرتها التوكُّل على الله تعالى والتفويض إلى الله سبحانه، والثقة بالله جلَّ جلاله.

وأما **الأسماء التي معناها الاطِّلاع والإدراك كالعليم والسميع والبصير والقريب وشبه ذلك**، فثمرتها المراقبة.

وأما **الصلاة على النبي** ﷺ: فثمرتها شدَّة المحبة فيه، والمحافظة على اتباع سنته ﷺ.

وأما **الاستغفار**: فثمرته الاستقامة على التقوى، والمحافظة على شروط التوبة مع إنكار القلب بسبب الذنوب المتقدِّمة.

*** ثم إنَّ ثمرة الذكر التي تجمع الأسماء والصفات مجموعة في الذكر الفرد، وهو قولنا: الله، الله. فهذا هو الغاية وإليه المنتهى.**

الصبر

المقام الرابع: الصبر في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فائدة: ورد ذكر الصبر من القرآن في أكثر من سبعين موضعاً، وذلك لعظمة موقعه في الدين، قال بعض العلماء: كلُّ الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصبر فإنه لا يُحصر أجره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وذكر الله تعالى للصابرين ثمانية أنواع من الكرامة:

أولها: المحبة: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والثاني: النصر: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والثالث: غرفات الجنة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

والرابع: الأجر الجزيل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، ففيها البشارة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. والصلاة، والرحمة، والهداية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

والصابرون على أربعة أوجه:

١- **صبر على البلاء**: وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع.

٢- **صبر على النعم**: وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبُّر بها.

٣- **صبر على الطاعة**: بالمحافظة والدوام عليها.

٤- **صبر عن المعاصي**: بكفِّ النفس عنها.

وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهراً، وترك الكراهة باطناً.

وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله جلَّ جلاله، وهو صادر عن المحبة، وكلُّ ما يفعل المحبوب محبوب.

التوحيد

المقام الخامس: التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

الواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حقِّ الله تعالى:

أحدها: أنه لا ثاني له، فهو نفي للعدد.

والآخر: أنه لا شريك له.

والثالث: أنه لا يتبعَّض ولا ينقسم، وقد فسر المراد به هنا في قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات:

الأولى: توحيد عامة المسلمين، وهو الذي يعصم النفس من الهلك في الدنيا، وينجي من الخلود في النار في الآخرة، وهو نفي الشركاء والأنداد، والصاحبة والأولاد، والأشباه والأضداد.

الدرجة الثانية: توحيد الخاصة، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله جلَّ جلاله وحده، ويشاهد ذلك بطريق المكاشفة، لا بطريق الاستدلال الحاصل لكلِّ مؤمن، وإنما مقام الخاص في التوحيد يغني في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل.

وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى الله تعالى، والتوكُّل عليه وحده، واطراح جميع الخلق، فلا يرجو

إلا الله تعالى، ولا يخاف أحداً سواه، إذ ليس يرى فاعلاً إلا إياه، ويرى جميع الخلق في قبضة القهر ليس بيدهم شيء من الأمر، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب.

والدرجة الثالثة: ألا يرى في الوجود إلا الله جلَّ جلاله وحده، فيغيب عن النظر إلى المخلوقات، حتى كأنَّها عنده معدومة، وهذا الذي تسميه الصوفية مقام الفناء، بمعنى الغيبة عن الخلق حتى أنه قد يفنى عن نفسه، وعن توحيده، أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله سبحانه.

المحبَّة

المقام السادس: محبَّة الله تعالى: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

اعلم أنَّ محبة العبد لربِّه جلَّ وعلا على درجتين:

إحداهما: المحبَّة العامة التي لا يخلو منها كلُّ مؤمن، وهي واجبة.

والأخرى: المحبَّة الخاصَّة التي ينفرد بها العلماء الربَّانيُّون، والأولياء والأصفياء، وهي أعلى المقامات، وغاية المطلوبات، فإنَّ سائر مقامات الصالحين: كالخوف، والرجاء، والتوكُّل، وغير ذلك فهي مبنية على حظوظ النفس، ألا ترى أنَّ الخائف إنما يخاف على نفسه، وأنَّ الراجي إنما يرجو منفعة نفسه؛ بخلاف المحبَّة فإنَّها من أجل المحبوب، فليست من المعاوضة.

واعلم أنَّ سببَ محبةِ الله تعالى معرفتُهُ، فتقوى المحبَّة على قدر قوَّة المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإنَّ الموجب للمحبة إحدى أمرين، وكلاهما إذا اجتمع في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال.

الموجب الأول: الحسن والجمال.

والآخر: الإحسان والإجمال.

فأما الجمال: فهو محبوب بالطبع، فإنَّ الإنسان بالضرورة يحبُّ كلَّ ما يستحسن، والإجمال مثل جمال الله تعالى في حكمته البالغة وصنائعه البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تروق العقول وتهيج القلوب، وإنما يُدرَك جمالُ الله تعالى بالبصائر لا بالأبصار.

وأما الإحسان: فقد جُبِلَت القلوبُ على حبِّ مَنْ أحسن إليها، وإحسانُ الله تعالى إلى عباده

متواتر، وإنعامه عليهم باطن وظاهر، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ويكفيك أنه يحسن إلى المطيع والعاصي، والمؤمن والكافر، وكلُّ إحسان يُنسَبُ إلى غيره فهو في الحقيقة منه، وهو المستحقُّ للمحبَّة وحده.

واعلم أنَّ محبَّة الله تعالى إذا تمكَّنت من القلب ظهرت آثارُها على الجوارح، من الجدِّ في طاعته، والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته، والتلذُّذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأنس بذكره، والاستيحاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات، وخروج الدنيا من القلب، ومحبَّة كلِّ من يحبُّه الله تعالى، وإيثاره على كلِّ من سواه.

قال **الحارث المحاسبي**: المحبَّة تسليمك إلى المحبوب بكلِّيَّتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك، ثم موافقته سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبِّه.

التوكُّل

المقام السابع: التوكُّل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

التوكل هو الاعتماد على الله جلَّ جلاله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرَّات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات، لوجهين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والآخر: الضمان الذي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقد يكون واجباً لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. فجعله شرطاً في الإيمان، والظاهر قوله تعالى جلَّ جلاله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] فإنَّ الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أنَّ الناس في التوكُّل على ثلاثة مراتب:

الأولى: أن يعتمد العبد على ربه كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشكُّ في نصيحته له، وقيامه بمصالحه.

والثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه، فإنه لا يعرف سواها، ولا يلجأ إلا إليها.

والثالثة: أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل، قد أسلم نفسه إليه بالكليَّة، فصاحب الدرجة الأولى له حظٌّ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية، وصاحب الثانية له حظٌّ من المراد والاختبار، بخلاف صاحب الثالثة، وهذه الدرجات مبنيَّة على التوحيد الخاص الذي تكلَّمنا عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فهي تقوى بقوَّته، وتضعف بضعفه.

فإن قيل: هل يشترط في التوكُّل تركُ الأسباب أم لا؟ فالجواب: أنَّ الأسباب على ثلاثة أقسام:

أحدها: سبب معلوم قطعاً قد أجراه الله تعالى، فهذا لا يجوز تركه؛ كالأكل لدفع الجوع، واللباس لدفع البرد.

والثاني: سبب مظنون: كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدم فعله في التوكُّل، لأنَّ التوكُّل من أعمال القلب، لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه.

والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدم فعله في التوكُّل. ثم إنَّ فوق التوكُّل التفويض، وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكليَّة، فإنَّ المتوكِّل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده باعتماده على ربه، وأما المفوِّض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند المراد والاختيار إلى الله تعالى، فهو أكمل أدباً مع الله تعالى.

المراقبة

المقام الثامن: المراقبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: إذا تحقَّق العبد بهذه الآية وأمثالها استفاد مقام المراقبة، وهو مقام شريف، أصله علم وحال، ثم يثمر حالين:

أما العلم فهو معرفة العبد أنَّ الله تعالى مطَّلعٌ عليه، ناظرٌ إليه، يرى جميع أعماله، ويسمع جميع أقواله، ويعلم كلَّ ما يخطر على باله.

وأما الحال فهي ملازمة هذا العلم للقلب بحيث يغلب عليه، ولا يغفل عنه، ولا يكفي العلم دون هذه الحال، فإذا حصل العلم والحال كانت ثمرتُها عند أصحاب اليمين الحياءَ من الله تعالى، وهو يوجب بالضرورة تركَ المعاصي والجدَّ في الطاعات؛ وكانت ثمرتها عند المقربين المشاهدة التي توجب التعظيم والإجلال لذي الجلال، وإلى هاتين الثمرتين أشار رسول الله ﷺ بقوله: (الإحسان

أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

فقوله: «أن تعبد الله كأنَّك تراه»: إشارة إلى الثمرة الثانية، وهي المشاهدة الموجبة للتعظيم، كمن يشاهد ملكاً عظيماً، فإنه يعظِّمه إذ ذاك بالضرورة، وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»: إشارة إلى الثمرة الأولى، ومعناه: إن لم تكن من أهل المشاهدة التي هي مقام المقرَّبين، فاعلم أنه يراك، فكن من أهل الحياء الذي هو مقام أصحاب اليمين، فلما فسَّر الإحسان أول مرة بالمقام الأعلى رأى أنَّ كثيراً من الناس قد يعجزون عنه، فنـزل عنه إلى المقام الآخر.

واعلم أنَّ المراقبة لا تستقيم حتى تتقدَّم قبلها المشارطة والمرابطة، وتتأخَّر عنها المحاسبة والمعاقبة.

فأما المشارطة: فهي اشتراط العبد على نفسه بالتزام الطاعة وترك المعاصي.

وأما المرابطة: فهي معاهدة العبد لربِّه على ذلك.

ثم بعد المشارطة والمرابطة أول الأمر تكون المراقبة إلى آخره.

وبعد ذلك يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه، فإن وجد نفسه قد أوفى بما عاهد عليه الله تعالى، حمد الله جلَّ جلاله، وإن وجد نفسه قد حلَّ عقد المشارطة، ونقض عهد المرابطة، عاقب النفس عقاباً بزجرها عن العودة إلى مثل ذلك، ثم عاد إلى المشارطة والمرابطة وحافظ على المراقبة، ثم اختبر بالمحاسبة، فهكذا يكون حتى يلقى الله تعالى.

الخوف والرجاء

المقام التاسع والعاشر: الخوف والرجاء في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾: جمع الله تعالى الخوفَ والطمعَ ليكون العبد خائفاً راجياً، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]. فإنَّ موجبَ الخوف معرفةُ سطوة الله تعالى وشدة عقابه، وموجبَ الرجاء معرفةُ رحمة الله تعالى وعظيم ثوابه، قال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]. ومن عرف فضل الله تعالى رجاه، ومن عرف عذابه خافه، ولذلك جاء في الحديث: (لو وُزِنَ خوفُ المؤمن ورجاؤه لاعتدلا) هذا مأثور عن بعض السلف ومعناه صحيح (كشف الخفا). إلا أنه يستحبُّ أن يكون العبد طول

عمره يغلب عليه الخوف، ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيئات، وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت، لقوله ﷺ: (لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسن الظنَّ بالله تعالى) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

واعلم أنَّ الخوف على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون ضعيفاً يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر، فوجود هذا كالعدم.

والثانية: أن يكون قوياً فيوقظ العبد من الغفلة ويحمله على الاستقامة.

والثالثة: أن يشتدَّ حتى يبلغ إلى القنوط واليأس، وهذا لا يجوز، وخير الأمور أوسطها.

والناس في الخوف على ثلاثة مقامات:

١- فخوف العامَّة من الذنوب.

٢- وخوف الخاصَّة من الخاتمة.

٣- وخوف خاصَّة الخاصَّة من السابقة، فإنَّ الخاتمة مبنيَّة عليها.

والرجاء على ثلاث درجات:

الأولى: رجاء رحمة الله تعالى مع التسبُّب فيها بفعل طاعة وترك معصية، فهذا هو الرجاء المحمود.

والثانية: الرجاء مع التفريط والعصيان، فهذا غرور.

والثالثة: أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن، فهذا حرام.

والناس في الرجاء على ثلاثة مقامات:

١ـ فمقام العامَّة: رجاء ثواب الله تعالى.

٢ـ ومقام الخاصَّة: رجاء رضوان الله جلَّ جلاله.

٣ـ ومقام خاصَّة الخاصَّة: رجاء لقاء الله سبحانه حباً فيه وشوقاً إليه.

التوبة

المقام الحادي عشر: **التوبة** في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: التوبة واجبة على كلِّ مؤمن مكلَّف، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وفرائضها ثلاث:

١- الندم على الذنب من حيث عُصي به ذو الجلال، لا من حيث أضرَّ ببدن أو مال.

٢- الإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توانٍ.

٣- العزم أن لا يعود إليها أبداً، ومهما قُضي عليه بالعود أحدث عَزماً مجدَّداً.

وآدابها ثلاثة:

١- الاعتراف بالذنب مقروناً بالانكسار.

٢- الإكثار من التضرُّع والاستغفار.

٣-الإكثار من الحسنات لمحو ما تقدَّم من السيئات.

ومراتبها سبع:

١- فتوبة الكفار من الكفر.

٢- توبة المخلطين من الذنوب والكبائر.

٣- توبة العدول من الصغائر.

٤- توبة العابدين من الفترات.

٥ - توبة السالكين من علل القلوب والآفات.

٦- توبة أهل الورع من الشُّبُهات.

٧- توبة أهل المشاهدة من الغفلات.

والبواعث على التوبة سبعة:

١- خوف العقاب. ٢ - رجاء الثواب. ٣ -الخجل من الحساب. ٤- محبة الحبيب. ٥- مراقبة الرقيب القريب. ٦- تعظيم بالمقام. ٧- شكر الإنعام.

الإخلاص

المقام الثاني عشر: الإخلاص في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الإخلاص هنا: يراد به التوحيد وترك الشرك، أو ترك الرياء، وذلك أنَّ الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وترك الإخلاص في التوحيد هو الشرك الجليُّ، وترك الإخلاص في الأعمال هو الشرك الخفيُّ، وهو الرياء، قال رسول ﷺ: (الرياء الشرك الأصغر) أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال الإمام الذهبي: صحيح.

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه يقول: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُهُ وشِرْكَهُ) أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى.

واعلم أنَّ الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات، ومنهيات، ومباحات.

فأما المأمورات: فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله تعالى، بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النية لغير وجه الله سبحانه، من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك، فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما المنهيات: فإنْ تركها دون نية خرج عن عُهْدتها، ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها بنية وجه الله جلَّ جلاله حصل له الخروج عن عُهْدتها مع الأجر.

وأما المباحات: كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإن فعلها بغير نيَّة لم يكن له فيها أجر، وإن فعلها بنيَّة وجه الله تعالى فله فيها أجر، فإنَّ كلَّ مباح يمكن أن يصير قربةً إذا قُصِد به وجه الله تعالى، مثل أن يقصد بالأكل القوَّة على العبادة، ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله رب العالمين

** ** **